

رحلة العدل في مصر

بسط هذا البحث مواقف شامخة لقضاة في مصر مستندا إلى كتبهم، وأحكامهم، ومواقفهم من هؤلاء:

- الامام الليث بن سعد
- الامام البويطي
- الامام الشافعي
- الشيخ الشعرائي
- محيي الدين بن عربي
- الشيخ المراغي

وهذا البحث بسط أيضا مواقف شامخة لقضاة في مصر الحديثة مستندا إلى كتبهم وأحكامهم ومواقفهم

في العيد الخمسيني للمحاكم الاهلية ٣١/١٢/١٩٣٣ وصف عبدالعزيز باشا فهمي، العدل بقوله «العدل من صفات الله الكبير المتعال».

لو تمثل لكان خلقا جميل الطلعة، طلق المحيا، حلو الحديث، مؤلفا القلوب، سماء في رضا الكافة على السواء.. في بسمته طمأنينة وسلام، وفي راحته البركة والرخاء والتعيم المقيم». وانه كذلك.

• هذه المحاضرة ألقتهها الدكتورة نعمات أحمد فؤاد في نادي القضاة بدعوة منه في يوم ٢ من يناير ١٩٨٥ وقد اختارت موضوعا لها (رحلة العدل في مصر) تعبيرا عما كابده مصر من محن تحيفت الانسان والمكان فكان صمودها الصامد وصبرها الصابر وقفة عملاقة ارتد على أثرها البغي خاسئا وهو حسير. وقد طوفت هذه المحاضرة وطافت بمواقف لمصر، شامخة في إقرار العدل وردع الظلم من حقها التسجيل للأجيال القادمة حتى لا تياس ولا تنظما من ولا تمنح رأسا لغير الله لتنتقل الشعلة متوهجة من جيل إلى جيل وتطرده الخطى في مسيرة طويلة عتيدة شماء لا مثيل لها تمتد من مصر القديمة إلى مصر اليوم ومصر المستقبل باذن الله التي نرجو أن تكون أحسن حالا وأهدأ بالا، وأنعم حياة.

وبعد شيخ القضاة، أعرف في استحياء، العدل بأنه عدلان:
عدل سماوى وهو أسمى ألوان العدل..
وعدل أرضى

والعدل الارضى بدوره عدلان: عدل مكتوب أى قانون وضعى.

وعدل معاش أى موقف حر.. كلمة حق فى وجه الظلم صاحبها أحد الذين يظلمهم الله يوم
لا ظل إلا ظله: قاتل حق فى وجه سلطان جائر.

والعدل فى مصر عرف الاثنىن معا:
القانون الوضعى.

والموقف الحر أى الموقف الحضارى.

وسار العدل

قطع أشواطاً طويلة..

فى رحلة مسيرتها آلاف الأعمام

رحلة مضية لكنها ممتعة

قاسية ولكنها رائعة

متحدية ولكنها باتعة

تشرف بمصر وتشرف بها مصر بل يشرف بها الانسان فى كل مكان فقد كان «جيته» يقول:
(كلما رأيت عملاً جليلاً، افرح لاننى انسان).

وبدأت رحلة العدل فى مصر منذ ازمان سحيقة وقبل التاريخ. بدأت يوم عرفت مصر
(التجريد) فى اللفظ والفكر وهما درجتان عاليتان فى التقييم الحضارى. فالتجريد فى اللغة مرحلة
ناضجة فى التعبير.. والتجريد فى الفكر مرتبة فائقة فى الثقافة.

ومن التجريد فى اللفظ والفكر معا، كلمة «ماعت» التى أطلقتها مصر على العدل والحق
والصدق.

ورفع قدمائنا هذه المعانى إلى قمة فجعلوا «ماعت» إلهة العدل ورمزوا لها بريشة على
رأسها.. وهو رمز نفيس ورفيع إجلالا للعدل وإكبارا للحق وإعلاء للصدق وإعزازا للقبيلة

واعترازا بالمثل الأعلى.. حتى ليقول أهلنا فى الريف إلى اليوم. بروح العدل، عندما يرفضون التحيز أو الاستثناء: هو على رأسه ريشة..

وعندما صار للعثمانيين دولة، وامبراطورية، وخلافة، كان الخليفة يضع فى عمامته، ريشة مرصعة -لزوم الفخفة- وكذلك القواد والفرسان على تفاوت.

كما كان الممالك يتمايزون بهذه الريشة تشبها. يقول برستد فى كتابه «فجر الضمير»:

«إن ماعت قد نشأت فى أول أمرها بمثابة أمر شخصى بالفرد للدلالة على الخلق العظيم فى الأسرة أو فى البيئة التى تحيط بالانسان مباشرة ثم انتقلت بالتدرج فى سيرها إلى ميدان أوسع فصارت تمثل الروح والنظام للإرشاد القومى والإشراف على شئون البشر بحيث تكون الإدارة المنظمة مفعمة بالاعتناق الخلقى.

وبتلك الكيفية وجدت لأول مرة بيئة ذات قيم عالمية وحينما بدأ المصريون يتصورون الحكم الالهى لهذه البيئة، كانوا فى الحقيقة يسرون فى الطريق المؤدى إلى عقيدة التوحيد السامية.. فلم يكن من مجرد المصادفة أن كان ثانى الشعوب اهتداء إلى عقيدة التوحيد المذكورة، أقرب جيران مصر عبر حدود آسيا فى فلسطين.

فالتصور المصرى للنظام الإدارى والخلقى العظيم، الذى أطلق عليه اسم «ماعت» والذى صار أسمى مظهر للحضارة الشرقية القديمة، كما كان نتيجة للتطور الاجتماعى الحكومى مدة ألف سنة من حياة أمة عظيمة موحدة ثابتة منظمة كانت تخطو دائما فى خلالها نحو الارتقاء والتقدم.

ماعت..

كلمة واحدة جامعة حوت فى ثناياها كل معانى السمو والرفعة فى الحياة البشرية. إنها أقدم تعبير معنوى ذى معان متعددة..

ماعت لم تكن تعنى نقيض الباطل فقط، بل تعنى نقيض الأخطاء الخلقية على وجه عام أيضا.

اختارت مصر الريشة، تاجاً للعدالة يفوق التيجان المرصعة وكان المصريون يسمون الله: رب العدالة.

بهذه الريشة أو بجزئتها العلوى العارى من الريش بله الأحجار الكريمة، أقسم الله فى الاسلام.

أقسم بالقلم وبما سطر : (ن والقلم وما يسطرون)

وبالقراءة فصل الله بين عهدين: الجاهلية والاسلام بداية الرسالة الإسلامية وبداية الحضارة الإسلامية: القراءة ليست قراءة الحروف فحسب.. بل قراءة المعانى وراءها. وكم قرأت مصر وكم كتبت.. وسطرت.

كانت «ماعت» معناها الصدق

وكانت «ماعت» معناها العدل والحق

وكانت بهذا كله، توضع فى مكان بارز فى دور القضاء، ودور المحاكم وفى المنازل، وفى المقابر منازل الآخرة كما يسميها أبناء الشعب.

وهذا مؤشر إلى قيمة الصدق عندهم فى الحياة، وبعد الحياة.. ومدى تعلقهم به.

ومن حكم امينموى الحكيم المصرى: (قل الصدق وافعل ما يقتضيه. فهو العظيم القوى).

كان يحنو على الخطأ «قل الصدق» وآية حنوه، قوله: (لا تقولن لا أحمل خطيئة فليس بين يدي الله، انسان كامل).

ومما يحسب لمصر، أن شوقها إلى الحقيقة، لم تدفع اليه حاجة ملحة والحاجة أم الاختراع كما يقولون ولكن مصر أستشرفت إلى الكمال والى معرفة الله من خلال اختناون الملك السيد الذى لم يكن عنده مشكلة.. ومع هذا كله، ألقى الملك الامبراطور، ألقابه الملكية كلها، حين شعر بضالة الإنسان مهما بلغ، إلى جانب الله المتفرد بالعظمة والجلال وسمى آخناون نفسه:

«العائش على الصدق»

وهنا وصل بعد التجريد، إلى التجرد.

والتجرد من الأشياء المادية لا يعنى جهلها أو تجاهلها وهو الملك الواسع الغنى، البالغ الثراء ولكن يعنى التحرر من سيطرتها.. يعنى احتواءها صورة فى داخل النفس، لا اقتناءها عينات خارجها.

وتمسك مصر بالعدل ينعكس، فيها، على الواقع وعلى الأساطير ففى أسطورة ايزيس واوزيرس التى قتل فيها «ست» أخاه اوزوريس بكت ايزيس، انसानة ثم انبعثت، مصرية، بروح العدل تسمى الى، المحكمة تعرض قضيتها.

لم تعرف ايزيس، حائط المبكى.. وما عرفته مصر حتى فى أقسى المحن:

إنها تترك للقانون، محاكمة الجانى.

وتترك للزمن من يفلت من العقاب فيتأكل ويختفى، وتظل هى الباقية.

وتسجل أسطورة ايزيس واوزوريس، كره الخنزير عند المصريين لأن «ست» تقمص هيئته وفقاً عين حورس، الذى حملها فى بر الأبناء وقدمها إلى والده رمزا للتضحية والوفاء.. احتفظت به مصر.. واحتفلت به مدلولاً ومعنى. ومن مآثورات مصر فى المجاملة (فداك عيني).

ومع كراهية الخنزير، رسموه على جدران المعابد وقد غطوه بشال يقيه البرد فى الشتاء.. وأمامه رجل يسقيه من إناء نظيف فى فصل تام بين حق الحى ولو كان حيوانا، وبين العداوة أو البغض.

وفى القرآن الكريم: (ولا يجرمكم شنآن قوم على ألا تعدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى).

وأن مصر فاقت مقاييسها الخلقية، الوصايا العشر، ومتى؟ قبل أن تكتب الوصايا العشر بألف ستة. إن أدبها ركيزة للتوراة

وبروح العدل تشفع المصرى عند الحساب:

«لم أرتكب ما يغضب الاله»

- «لم أتسبب في بكاء أحد»
«لم أتسبب في حرمان انسان من حق له»
«لم أنقص المقياس»
«لم أطفف في الميزان»
«لم اختطف اللبن من فم الرضيع»
«لم أطرده الماشية من مراعيها»
«لم أصد الماء في موسم جريانه»
«لم أقم سدا في مجراه»
«لم أطفئ شعلة في وقت الحاجة اليها»
«لم أعترض على إرادة الله»

ليت الانسان في كل مكان في شرق أو غرب
ليتنا بعد آلاف السنين نلتزم هذا أو بعضه لتعود الحقوق ويتراحم البشر وتهدأ حدة الصراع،
وترشد أسباب النزاع.. لتنهأ الحياة.
رحلة العدل في مصر.. كم هي شائقة فائقة.
كان قاضي القضاة في مصر القديمة أهم رجل في الدولة..
كان القضاة قمة الشرف.. فهم في البروتوكول يأتون أولا، حين يأتي المادحون آخرا.
وكم بين صدق التقنين وشرف اليقين.. وبين ترخص المتزلفين. كانت محكمة الجنوب تتألف
من مجلس الثلاثين ويقوم أعضاؤه باختيار رئيس المحكمة من بينهم.. وكانوا يلقبون بالقضاة
العظام (أور) وأحيانا يأتي لقب القاضي Sab بدون إضافة اليه.
انه القاضي وكفى.

أما في الشمال فكان مجلس القضاء يتألف من دوائر تعقد في مدينة «أثيت تاوى»^(١).

ويتبين من منظر لإحدى محاكم العدل في الأسرة الثامنة عشر وجود أربع مناضد وضع على كل منها عشرة ملفات (وهي نصوص القوانين المكتوبة).

وكان كبير القضاة وزيرا.. وكان يضع شارة القاضي في صدر ألقابه، اعتزازا، بصفة القضاء^(٢).

كانت المحكمة العليا تسمى (البيت الكبير) وكانت هيئة دائمة وتشبه مجلس الوزراء الآن. وتألّفها يختلف من قضية إلى أخرى كما تختلف هيئة المحلفين في بريطانيا في الوقت الحاضر^(٣).

وجاء الملك «حور محب» في أعقاب ثورة اخناتون واحمس بما يعقب الثورات فأصدر مرسوما (من مآت رع) يحذر فيه كل من يسىء استخدام سلطته.. لم يستثن الامراء أو رجال القصر الملكى أو الفرسان أو حكام الاقاليم^(٤).

يقول أرفين سيد:

«ان المصريين من الأمم التى لها ضلع وافر فى العلوم القانونية وإن القضايا امام البلاط تشكل فى الأدب المصرى جانبا أكبر من نظائره فى آداب الأمم الأخرى».

وفى نشيد النيل الذى أورده ارمان فى كتابه (أدب مصر القديمة) يقول المصرى القديم:

«إنه النيل قوام العدل الذى يحبه الناس. يغمظه من يقرنه بالبحر الذى لا يثبت قمحا، وبالصحراء التى لا تؤوى طيرا».

ومادام الناس لا يأكلون اللازورد الحر فالشعير أحسن».

يحكى الامام الليث أنه لما قدمت على هرون الرشيد، قال لى:

(١) اقرأ كتاب (الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة) تأليف فلنדרز بترى ترجمة حسن جوهر عبدالمنعم عبدالحليم.

(٢) و (٣) كتاب (تاريخ الحضارة المصرية) مجموعة بحوث. بحث الدكتور عبدالمنعم أبو بكر «النظم الاجتماعية».

(٤) اقرأ كتاب (الحياة اليومية فى عهد الرعامسة) تأليف بيير مونتيه ترجمة عزيز بك مرقص.

ياليث ما صلاح بلدكم..؟

قلت ياأمير المؤمنين.. صلاح بلدنا بإجراء النيل، وإصلاح أميرها.. ومن رأس العين يأتي الكدر، فإذا صفا رأس العين صفت السواقي..

فقال صدقت ياأبا الحارث^(١)

وللقاضى فى مصر القديمة، تقاليد.. فمن أقوالهم:

(إذا كنت قاضيا فرحب بالاستماع إلى من يتقدم إليك بظلامه، وشجعه على أن يفضى اليك بما عنده، ودعه يفتح لك عما فى قلبه، وإن التهلل فى وجهه وإظهار العطف عليه يحملانه على قول الصدق والاعتراف بالحق ولو كان فى غير مصلحته!

وإن من سمو الأخلاق وحسن التربية، الاصفاء له فى حلم وسماحة وعطف)^(٢).

ومن العدل فى مصر الجزاء العادل على العمل.

(هناك نصوص كثيرة نحتها منقوشة فى المقابر تدل عبارتها على أن العامل كان يعمل دائما بأجر. ففى هذه النقوش نجد ذكر حسنات المتوفى ومن بينها أنه كان لا يبخس العامل حقه.. وأنه كان يوفيه أجره، فلا يجبره على العمل بأجر غير عادل)^(٣).

ويذهب معظم علماء الآثار إلى أن القانون المصرى ما كان ليقر نظام الرق فى عهد الاسرتين الثالثة والرابعة، وأن الناس كانوا فى ذلك العهد على اختلاف طبقاتهم يولدون ويموتون أحرارا، إذن الأهرام لم بتين بالسخره لافرق فى ذلك بين عامل أو صانع أو زارع ووزير أو عظيم)^(٤).

ومن روح العدل فى مصر، ما جاء فى نصائح الملك اختوى لابنه الملك مريكارع:

(١) اقرأ كتاب (الليث بن سعد) للدكتور عبدالحليم محمود شيخ الأزهر السابق.

(٢) اقرأ كتاب (الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة) تأليف فلنדרز بترى.

(٣)، (٤)، (٥) اقرأ كتاب (التاريخ العام للقانون فى مصر القديمة والحديثة) للدكتور شفيق شحاتة.

«هدىء من روع الباكي، ولا تظلم الأرملة، ولا تحرم إنسانا من ثروة أبيه، ولا تطرد موظفا من عمله.. لا تقتل رجلا اذا كنت تعرف جميل مزياه.. رجلا كنت تتلو معه الكتابات» (اى زميلك فى الدراسة)^(١).

ومن روح العدل والشجاعة معا قول «أيبور» للملك:

(افتح ابوابك.. إن أعوانك قد خدعوك).

عدل ويقظة ضمير، معا نصيحة امينموبى لابنه فى أنبل تعبير:

«لا تنم فى الليل وأنت خائف من الغد.. لأننا لا ندرى عندما ينبثق القجر ماذا يكون عليه الحال فى الغد! فالإنسان لا يعلم ما سيكون عليه الغد»^(٢).

الله فى كماله

والإنسان فى عجزه

أما الخطيئة فأمرها عند الله

وهو الذى يختمها بأصبعه

وليس بين يدى الله انسان كامل

ولا يقف العجز حائلا أمامه».

ويتساءل برستد: هل كان هناك، عندما نصح السيد المسيح (عليه السلام) تلاميذه بقوله «لا تفكروا فى الغد» أى صدى لتلك الحكمة المصرية القديمة فى تلك الكلمات؟

انه من المحتمل ألا يكون فى مقدورنا قط الاجابة على هذا السؤال غير أن حكم «امينموبى» قد قدمت لنا مساعدة جوهرية فى الكشف عن مدى انتشار التعاليم الخلقية المصرية القديمة فيما وراء شواطئ النيل وبخاصة فى فلسطين على أن أعظم الاجزاء انتشارا من حكم «امينموبى» قد تجاوزت فلسطين إلى مدى شاسع ولا تزال مستعملة بين ظهرانينا.

(١) مجلد تاريخ الحضارة المصرية.. بحث (الادب المصرى) للدكتور أحمد فخرى.

(٢) فى أمثالنا اليوم (أنت تريد وأنا أريد ويفعل الله ما يريد)، (بينما يقطع الجريد بفعل الله ما يريد).

وأن مثل ذلك الانتشار الواسع للرأى المصرى القديم عن علاقة الله بالانسان يفتح لنا ذلك الموضوع الواسع، وهو تأثير التطور الخلقى المصرى القديم لا فى تاريخ الانسان القديم فحسب، بل فى تاريخ المدينة الغربية أيضا.

حتى فرعون موسى عندما خاطبه موسى، لم يستقل بالرأى بل نظر إلى قومه وطرح الموضوع (قال لمن حوله ألا تستمعون)؟

الشعراء (٢٥)

وبغض النظر عن رأيه فى موسى، ريبب قصره الذى خرج عليه، وفى نفس ملك مصر، منه، ما فيها بعد أن قتل أحد رجاله بغير حق وفر هاربا (قال ألم نربك فينا وليدا ولبث فينا من عمرك سنين. وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين). الشعراء (١٨، ١٩)

بعد هذا كله وصفه بقوله (ان هذا لساحر عليم - لم يقذع فى القول - لاسيما اذا عرفنا نظرتهم إلى السحر، مهارة من المهارات، واذا لاحظنا كلمة عليم بما تضيفه من عمق فى فن السحر.

ثم نظر إلى رجاله قائلا (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون؟).

الشعراء (٣٥)

ادب فى خطاب رجاله وهو الملك صاحب الكلمة العليا

لقد جعل الامر للجماعة

وحتى حين غضب على السحرة لانضمامهم إلى موسى، قال:

(آمتتم به قبل أن أذن لكم) الشعراء (٤٩)

هنا البادرة الاولى فى غضبته مسألة الإذن.. نقطة بروتوكول ثم كانت الثورة العارمة حين ظنها مؤامرة ضده (ان هذا لمكر مكرومه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون: لا قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبكم أجمعين) الأعراف ١٢٤.

والى اليوم يستيح الحكام من كل جنس ولون القضاء على المؤامرات بكل الوسائل القاسية..
شعارهم: (أنا وبعدى الطوفان).

على أنه لما رأى آية الله هتف منيبا (أمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من
المسلمين) سورة يونس آية ٩٠

والامام محمى الدين بن عربى يقول فى كتابه (فصوص الحكم) بايمان فرعون ايماننا لازما،
وأنه لقى ربه طاهرا مطهرا سالما من العيب، برينا من الذنب) وظاهره فى هذا الامام جلال الدين
الدوالى فى رسالته الخطية الموجودة بدار الكتب.

لقد جعله ابن عربى آية على عنايته سبحانه لمن يشاء حتى لا ييأس أحد من رحمة الله العلى
القدير.

لقد قتل موسى مصرىا بغير حق.

وأخوة يوسف قتلوا أخاهم فى ظنهم حين ألقوه فى الحب، وكذبوا على أبيهم وأبناء يعقوب
سفاحون عندما يذبحون أهل شكيم أثناء الحفلات الشعائرية.

ألا يخطيء من ليسوا أنبياء؟

وعندما يخطيء فرعون موسى هل ينسحب الخطأ على كل فرعون؟ على أنه أناب والله
غفور رحيم.

ألم يكن أختاتون متساميا موحدان نبيلان؟

وإذا جاز أن يحسب على مصر خطأ فرعون واحد «فرضا» فإن من العدل أن يحسب لها فى
المقابل أمجاد فراعين يكفى الواحد منهم أمة بأسرها فى باب المفاخر.

عدل وشجاعة معا أن يواجه مصرى بسيط الحاكم ويشكو اليه أحد رجاله المقربين.

وقد طلب الفلاح المصرى فى قصته المعروفة^(١) إلى الحاكم ان يفصل بين الحق والباطل بقرار
عادل كالموازين الدقيقة التى لا تخطيء وخدم كلمة الموازين فى معانى الحق والعدل.

(١) قيل انها وقعت فى عصر الملك (نب كاوو- رع).

يقول برستد: (وقد وجدت الموازين فى ذلك المقال لأول مرة فى تاريخ الاخلاق. وقد بقيت صورتها وهى منصوبة فى يد العدالة العمياء رمزاً لذلك إلى يومنا هذا).

وفى القرآن الكريم ترد لفظة الميزان والموازين فى الحديث عن الحق والحساب والعقاب والعدل.

(الله أنزل الكتاب بالحق والميزان) ١٧ ك الشورى ٤٢ .

(والسمااء رفعها ووضع الميزان) ٧ م الرحمن ٥٥

(ألا تظفوا فى الميزان) ٨ م الرحمن ٥٥

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) ٤٧ ك الأنبياء ٢١

(وزنوا بالقسطاس المستقيم) ١٨٢ ك الشعراء ٢٦

وليس معنى هذا أن الإسلام اقتبس من مصر فكرة الموازين فالقرآن كتاب منزل وهو فى الوقت نفسه كتاب يهذى الانسان فى دينه ودينياه ويروى ظمأ الانسان إلى العدل والخير فى أسلوب يبدأ بالواقعية وينتهى إلى المثالية.

وقد عرف الصفوة فى أزمنة مختلفة، بالفطرة السليمة، ألوانا من معانى الخير والعدل. ومن هنا كان سبقهم إلى الايمان بالأديان لأنها تعبير عما فى نفوسهم وأفكارهم.

على أن الاديان بعد هذا ليست غايتها الاختراع والابتكار، وإنما غايتها الهداية واشاعة الخير والعدل والرحمة.

ومن شرف الانسان أو المكان أن يهتدى فى تطلعه إلى السماء إلى معان تأتى الاديان فتعززها.

وسبقت مصر القديمة إلى قانون (من أين لك هذا؟) فقد أصدر الملك أحمس الثانى من الاسرة السادسة والعشرين قانونا يحتم على كل شخص أن يقدم اقرارا فى كل سنة مبينا كسب عمله ووسائله وكان ذلك القانون ينص على كافة التزامات الشخص ويفصلها بدقة^(١).

(١) اقرأ كتاب (الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة) تأليف فلنדרز بترى. ص ١٦٢.

وقد دعا هذا الملك إلى عقد (جمعية وطنية) وكل إليها مراجعة جميع القوانين وتنقيحها. وقد استمر انعقادها من السنة الخامسة من عهده إلى السنة التاسعة عشرة أي نحواً من خمس عشرة سنة. ودعوة هذه الجمعية التشريعية يعتبر حدثاً فذاً في تاريخ مصر الفرعونية.. فلأول مرة خلال هذا التاريخ نجد الفرعون يشارك (هيئة تشريعية في سلطته التشريعية)^(١).

ولم يكن هذا القانون شعاراً بل عدلاً نافذاً وقانوناً حقيقياً..

عرفت مصر العقود بأنواعها وحق الانتفاع وحق الارتفاق والهبات والوصايا.

وكان المصريون أمام القانون سواء حين كان دستور قوانين (حمورابي) يقضى في العدالة حسب المركز الاجتماعي للمتقاضين.

وتند عن برستد، هتفة صدق:

(في القرون التي تقع بين ٥٠٠٠، ٣٥٠٠ ق.م قامت أول دولة متحضرة كبيرة في وقت كانت فيه أوروبا ومعظم غربي آسيا لاتزال مسكونة بجماعات مشتتة من صيادي العصر الحجري)^(٢).

ويقول (ان مصر من القرن الخامس والثلاثين إلى القرن الخامس والعشرين ق.م، وهذا العصر البالغ ألف سنة هو مرحلة فريدة في حياة الانسان علي الارض- ومن المهم أن نؤكد كلمة «فريدة» لأنه لم يكن في هذا العصر البعيد نمو مطرد متعاقب في أي بقعة أخرى من بقاع العالم القديم. وان مدة الألف سنة هذه هي التي وضعت مصر من الوجهة الخلقية والثقافية في مرتبة تفوق بكثير ما كان في بابل حيث كانت الشحنة قائمة بين بعض المدن وبعضها الآخر)^(٣).

ويقول : (ان الحضارة البابلية كانت تسودها في جميع أوارها روح الاقتصاد التجارى والكدر في الحاجيات الآلية مما حرم التطور الاجتماعي البابلي حتى من الأسس الأولية للتدرج نحو مراعاة الغير، والعمل على نفعهم فكان الاساس الخلقى اللازم للعدالة بين الجميع معدوما كلية.

(٢) كتاب (التاريخ العام للقانون في مصر القديمة والحديثة) للدكتور شفيق شحاته.

(٣)، (٤) كتاب: فجر الضمير: جيمس هنرى برستد.

أما الانعدام التام للفوارق الاجتماعية أمام القانون الذى هو من أرقى مظاهر الحضارة المصرية فلم يكن معروفاً فى بابل.. وكانت نتيجة ذلك أن المبادئ الأخلاقية فى بابل لم تساهم بالنزول اليسير ان لم تكن لم تسهم بشيء مطلقاً فى الإرث الأخلاقى الذى ورثه العالم الغربى(١).

وحين يعزو تقدم أمريكا اليوم، إلى وراثات المهاجرين الأوائل من الأمم الأوروبية، يقول: (المدنية فى أعلى معانيها ولدت فى الركن الجنوبي الشرقى فى البحر الأبيض المتوسط فى مصر على ضفاف النيل فى وقت كانت أوروبا لاتزال تعيش فيه همجية العصر الحجرى. ولم يكن فيها من يسبقها إلى المدنية.

من يعرف هذا كله يعرف قصة ظهور أول مدينة على وجه الكرة تحمل فى ثناياها صوراً خلقية ذات بال).

ودخلت المسيحية مصر والرومان فيها سنة ٦١ م.

وهنا تمثل العدل موقفاً

وتمثل موقف مصر ارادة اختيار

عادى الرومان المسيحية عدااءً مرا فاختارتها مصر نكايه فيهم ومخالفة لهم للتعبير عن المقت والمغايرة ولتأكيد وجودها وإظهار شخصيتها بحرية الاختيار وأصرت مصر على رأيها ولاقت من صنوف العذاب الوانا وهى لا تحيد وخاضت من أجل المسيحية معركة الشهداء بل من أجلها هى فما كانت المسيحية إلا تكأة تستند اليها فقد كان كفاحها سياسياً وديناً معاً. وكلما صالت الآراء اتخذت مصر موقفاً وقالت برأى خاص بها من فرط إحساسها بذاتها وطاقة التحدى فيها. وإمعاناً فى التحدى سموا التقويم المصرى «تقويم الشهداء».

وطار صواب البغى طويلاً ثم تاب ورفع الطغاة الظلم عن المصريين المسيحيين بل انتهى الأمر باعتناق الامبراطور «قسطنطين» المسيحية.. وابتسمت مصر.

وبروح القوانين وحسن التقنين كتبت مصر فى المسيحية وشرعت. فمصر المسيحية المصدر الأول لعلم اللاهوت بما خطه فيها اثناسيوس الذى تألق فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م وإن مؤلفاته

(١) كتاب: فجر الضمير: جيمس هنرى برستد.

التي وضعها عن (مجسّد الكلمة) و «الرد على الأريوسيين» (والروح القدس) لتعد ركيزة لكل ما كتبه مشاهير اللاهوتيين.

وفي أوروبا قول سائر في ذلك الحين:

(إذا وجدت عبارته من أقوال اثنا سيوس.. ولم تجد ورقا لتكتبها فاكتبها على قميصك في الحال).

وقد سجل الغرب أثر مصر الروحي في كتب:

(بستان الرهبان) و (المعاهد) و (المقابلات).

كما أثرت تعاليم ياخوميوس في حركة الإصلاح الكوني تلك الحركة الكبرى التي كان لها أثرها في توجيه المدنية في العصور الوسطى.

لباخوميوس المصري تدين، في نشأتها، جماعات الفرنسيسكان والدومنيكان بل اليه ينسب الفضل في قيام النهضة الادبية الفكرية الاولى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بما هي أثر من آثار تلك الهيئات الديرية وبما اقترن بها من قيام العلوم الانسانية ونشأة الجامعات في العصور الوسطى.

ومصر هي التي وضعت النظام الرعوي الذي يبدأ من الشمس، وينتهي إلى الأسقف.. وعن مصر، اخذته بقية الكراسى الرسولية.

وجاء الإسلام مصر

وهنا مرة أخرى.. تمثل العدل موقفا

وتمثل موقف مصر ارادة اختيار

اختارت مصر الإسلام وحاربت من أجله تحديا سياسيا للرومان أيضا. فقد راع الرومان فتوحات الإسلام وإخراجهم من الشام ثم مصر فرأوا أن ينازلوه في البحر لعدم دراية العرب بالبحر والسفن. وهنا قام على أكتاف مصر أسطول للإسلام.. وبأسطول مصر انتقلت إلى الإسلام

سيادة الحوض الشرقي للبحر الأبيض يوم أعانته، كدأ بها ابدا، فى معركة البحرية مع البيزنطيين فخرجت القوة الحاسمة منها لتهزم أعداءه فى موقعة (الصواري).

كان إسلام مصر، إرادة اختيار لا هربا من الجزية التى تعنى دينارين فحسب فى السنة على رأس الأسرة ويعفى منها الشيوخ والنساء والأطفال وكانت مقابل حماية الثغور أى بدل عسكري.. حين كان المسلم يكلف بدفع الزكاة وهى ربع العشر عن جميع أفراد الأسرة ولو كان طفلا وليدا.. كما كان المسلم مكلفا بحماية الثغور أى الجنديّة التى كانت تهرب منها الأمم جميعا حتى أن إنجلترا فى أول القرن التاسع عشر حين أرادت تدعيم البحرية الإنجليزية لجأت إلى دعوة الشباب وإغرائهم بالشراب والعب منه حتى إذا ثملوا، جعلتهم يوقعون على عقود التحاق بالبحرية.

أما محمد على فقد عرف بذكائه المدخل الدينى إلى مصر المتدنية حتى قبل الأديان فسمى الجنديّة، الجهادية ليستنهض الهمم اليها.

وهنا نخلص إلى إن الإسلام الذى كان يحتم الجنديّة لحماية الثغور لا يمتنع إلا مؤمن به مقتنع.

وفى دولة الإسلام لم يخب احساس مصر بالعدل ومنذ البداية إن قصة ابن عمرو بن العاص الذى ضرب مصريا سبقه، لا تعدو أن تكون اشتباكا بين صبيان لم يترد إلى اعتقال أو تعذيب أو تأميم أو مصادرة أو سب مفرد على المنابر حتى لرجل الدين.. ومع هذا تمسك الصبى ووالده برفع الأمر إلى الخليفة أعلى سلطة ودونه من السفر آلاف الأميال مع ما تكبده مثل هذه الرحلة فى ذلك الوقت.. موقف.

ويزداد الموقف شموخا حين يزيد عمر فى احقاق العدل وارضاء المظلوم فيقول للفتى المصرى بعد أن ضرب بأمره، ابن عمرو الذى كان قد استدعاه مع والده:

الآن اعل بعصاك صلعة عمرو (وكان الوالى)

فيقول الفتى ريبب الحضارة الطويلة:

شكرا يا أمير المؤمنين لقد ضربت من ضربنى.

ويرد الخليفة العادل ريبب الإسلام:- موجهها اللوم إلى عمرو بن العاص - (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟).

وفي الإسلام أخذت مصر دورا مؤثرا.

جاء في (حسن المحاضرة) للسيوطي، أن الشيخ كمال الدين الدميري ومن الحديث:
ان الله يبعث على رأس كل مائة لهذه الامة من يجدد لها دينها.

وهو حديث رواه عن ابى هريرة ابو داود فى سننه، والحاكم فى المستدرک، والبيهقى فى
المعرفة.

قلت: ومن اللطائف أن المبعوثين على رأس القرون مصريون: عمر بن عبدالعزيز فى الأولى
والشافعى فى الثانية، وابن دقيق العيد فى السابعة، والبلقيني فى الثامنة..

وأضيف أن مصر قدمت غير هؤلاء الأجلاء:

الامام الليث الذى كان الامام الشافعى يقول:

(الليث أفقه منى ولكن ضيعه قومه) ويقول:

(الليث أفقه من مالك ولكن قومه لم يقوموا به) ويقول:

(كان أتبع للآخر من مالك)^(١)

والشيخ عز الدين بن عبدالسلام سلطان العلماء كما كانوا يدعونه، والبوصيرى صاحب
البرده

وكم من العلماء والمصلحين آووا إلى مصر أو سمعوا عن مصر أى كانت مرباهم العلمى
كما كانت للإسلام بيئة حضارية وركيزة حضارية وواجهة حضارية.

قدمت مصر الامام البويطى

وقدمت مصر ذا النون

وقدمت مصر ابن الفارض

وفى القرن السابع الهجرى عندما كثرت فى الإسلام الفرق والنحل واستشرى الخلاف بينها،
تطلع الإسلام والمسلمون إلى مصر لتحسم الموقف كدأبها فى الازمات الكبرى.. فاتفق رأى

(١) كتاب (لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربى) للاستاذ عبدالمجيد عابدين.

العلماء على رجلها الشيخ تقى الدين السبكي ليقوق بين المذاهب الاربعة ويخرج منها بالنفاذ المصرى واللصح المصرى وحس التقنين وروح العدل، مذهباً يتقاد الناس له، ويرتاحون اليه، ويقرون عنده.

وبعد، السبكي، قام بالتوفيق مصرى آخر هو الشيخ الشعرانى، بين المذاهب الأربعة كمحاولة التوفيق بين أهل الكشف والعيان.. وأهل النظر والاستدلال.. ويقول الباحثون الغربيون أنه مصلح يكاد الإسلام لا يعرف له نظيراً.

والتوفيق هنا وجه من التجديد الذى يصفه الأستاذ الخولى بأنه (حركة دائمة متصلة ما اتصلت الحياة، وما قام فيها من يحمى الحياة من الانحراف، ويجهر بالحق، ويصون المجتمع من الانتكاس، وشيوع المفاسد فيه.

التجديد بهذا كله انما هو ثورة اجتماعية دورية، يقوم بها عارف بالحياة، متصل بها وعميق الفكرة عنها)^(١).

وبروح التشريع تناولت مصر كتب الشافعى وأبدت من الملاحظات عليها بل النقد لها ما تقبله الشافعى كريماً واقتنع به حتى أنه أعاد كتابة رسالته ومذهبه من جديد فى مصر.. وما أوسع الفرق بينه وبين مذهبه القديم الذى كتبه بالعراق.

لقد محص آراء ورجع عن آراء كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة، فى كتابه (تاريخ المذاهب الفقهية). وكتاب الشافعى (الأم) به شواهد كثيرة على تأثره بالبيئة المصرية كحديثه فى القراطيس، وشهادة الشعراء وصيغ الوقف.

بل بلغ من اعتداد الشافعى بكتابه المصرى أنه كان يقول (لا أجعل فى حل من روى عنى كتابى البغدادى)

وهكذا نرى المجددين الذين اقترنت بهم وبأسمائهم حركات البعث التجديدى فى تاريخ الإسلام فى البضعة عشر قرناً، مصريين معظمهم.. بالمولد أو المرّبى أو الولاء.

(١) المجددون فى الإسلام ص ١٧.

ففي حياة هذه الفكرة التجديدية كما يقول الاستاذ الخولي (تجد مصر . كدأبها- مشاركة بحيويتها حاضرة بانبعائها الذي يحدده تدينها المتفلسف وتفلسفها المتدين وعملها العتيد في البعث ومن أجل البعث)^(١).

وفي مصر الإسلامية، أيام الفاطميين، كان قاضى القضاة (يتقدم سائر رجال الدولة فى الدخول على الخليفة.. وكان هو الوحيد فى الدولة المسموح له بر كوب الفرس الأشهب)^(٢).

ومن الطريف ان قاضى القضاة فى مصر الاسلامية كان يختار الشهود بعناية من بين الأشخاص المعروفين بالأمانة وعلى الأخص من بيئة طبقة الأشراف وهم فوق هذا، كان عليهم أن يقدموا الضمانات الكافية حتى لا يسيئوا إلى سير العدالة أو يعرقلوا عمل قاضى القضاة^(٣).

ولما كانت الشهادة فى الدولة الاسلامية من الوظائف الدينية التابعة للقضاء، كان ابن خلدون يعتبرها فى «مقدمته» (من وظائف الدولة الهامة) لما بين (الحكم) و (البينة) من صلة وثيقة فى القضاء الاسلامى حيث كانت الدليل الوحيد للحكم عند القضاة.

سبق القضاء، السياسة، وحقق الشورى.

كان ينفذ إلى معناها الذى اشتق من «شور» العسل اى جناه بعد أن جمعه النحل من رحيق أزهار مختلفة وكثيرة فكان فيه شفاء للناس.

وفى الشورى شفاء المجتمع بتجنيبه ويلات الحكم الفردى.

وفى كتاب (ادب القاضى)^(٤).

لا ينبغي للقاضى أن يجلس للقضاء وهو غضبان ولا ضجر ولا جائع ولا كظ من الطعام أى تمتلىء. ويكون جلوسه عند اعتدال أمره، ويجعل سمعه وفهمه وقلبه إلى الخصوم، لأن الضجر والجوع والامتلاء من الطعام مما يشغل الخاطر والفهم عن القضاء. ولا ينبغي للقاضى أن يقضى

(١) المصدر نفسه.

(٢) صبح الأعشى.

(٣) اقرأ كتاب (نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر) للدكتور عبدالمنعم ماجد.

(٤) كتاب (ادب القاضى) تأليف أبى بكر أحمد بن عمرو بن بهير الشيبانى المعروف بالحصان ص ٩٥-٩٦.

بين اثنين وخاطره مشغول بغيرهما لأنه لا يؤمن عليه العدول عن الحق. والأصل في هذا كله ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«لا يقضى القاضى بين اثنين وهو غضبان».

وعن شريح أنه كان اذا غضب ترك القضاء وقام.

وعن عمر بن عبدالعزيز أنه قال لميمون بن مهران حين ولاه القضاء لا تقض على غضب ولا ضجر وليكن من رأيك الحلم عن الخصوم واعلم أنه لاخير فى قضاء إلا بفهم، ولا خير فى فهم إلا بحكم، ولا خير فى حكم إلا بفصل ولا خير فى فصل إلا بعدل.

وفى عهد الفاطميين كانت محكمة المظالم تعقد برياسة الخليفة نفسه^(١).

وإذا كان العدل، هو الحق والكرامة والترفع وكم لمصر فى هذا الباب من مفاجر.

فالليث بن سعد امام مصر وفتيها رفض أن يكون قاضيا لابي جعفر المنصور الخليفة أخى عبدالله السفاح.

وقبل أن يكون صالح بن على العباسى واليا على مصر، عرض حكم مصر على الامام الليث فرفض.. ولكن السلطان والقاضى كان كل منهما يغشى فى نوابه وحوانجه مجلس الليث أحد أفذاذ معدودين فى حياة الشريعة الإسلامية.. كان السلطان والقاضى يسعيان سعيا إلى مجلس الليث التماسا للرأى أو التأييد فاذا استحقه احدهما، جاد، عليه، به، امام مصر وفتيها.. وإذا أنكر رجلنا الليث من السلطان، أو القاضى أمرا، كتب إلى الخليفة فما يلبث أن يأتى الحاكم، العزل.

كان الليث اماما.

وكان موقفا^(٢).

كان له فى الدين رأى، وله فى المجتمع سمت خاص، استعان بالتاريخ، بحاسة بلد التاريخ، على تفسير النصوص ومضاهاتها والخلوص إلى رأى يقرب الأطراف المتعارضة ويجمع الكلمة فى وقت هزت الأحداث السياسية، الدولة الإسلامية وصدعت شعوبها.. وهو فى هذا ينبع من

(١) كتاب المعز لدين الله تأليف د. حسن ابراهيم حسن - طه أحمد شرف.

(٢) كتاب (شخصية مصر) للدكتورة نعمات أحمد فؤاد

طبيعة مصر الإسلامية وأسلوبها التقليدي في الوفاق منذ وفق قبله فيلون الفيلسوف الإسكندري بين المسيحية والفلسفة اليونانية، ووفق الشيخ تقي الدين السبكي، بعده، بين المذاهب الأربعة، في القرن السابع الهجري كما أسلفت.

رفض الامام الليث، الحكم، وهو رفض للتبعية ولكنه حكم بأسلوبه هو، اذ جعل له أربعة مجالس: المجلس الاول يراجع فيه أعمال الولاة والقضاء ويقيسها على الكتاب والحديث والسنة فاذا وافقتها، اعتمدها.. فإن إقراره الشخصي بمثابة اعتماد.. ورفضه لها إبطال وبطلان.

أليس في استطاعته عزل الوالي والقاضى؟

والمجلس الثانى: خص به أصحاب الحديث.

والمجلس الثالث: اختص به الناس يعرضون مسائلهم.

والمجلس الرابع: لأصحاب الحوائج.. وكم فرج الامام الليث كربات وقضى حاجات.. فحياته للافتاء والإيواء حتى نسجت حوله في هذا قصص أشبه بالأساطير كقصته مع منصور بن عمار الذى نهاه عن مدح الحكام وأجزل له العطاء قائلا «خذ هذه وصن حكمتك».

وقولته الوجيزة والعزيزة: دستور العلماء وأصحاب الحكمة فى: الكرامة.

ومن رجال مصر أصحاب المواقف الذين لم يخشوا فى الحق أحدا، الامام البويطى الذى حمله الخليفة المأمون على القول بخلق القرآن فلم يذعن.. ويحمل فى غل الحديد إلى بغداد فلم يقر.. ويطرح فى السجن مقيدا إلى أنصاف ساقيه مغلولة يده إلى عنقه ولكنه لا يتظامن! ويموت على هذه الحال كما مات ضحايا هرقل فى المسيحية لينتظم منهم جميعا مسيحيين ومسلمين على تابع الدينين موكب الأحرار المصريين يرتاد لنا كلما أغطش ليل، طريق الحياة الكريمة على ضوء كلمة البويطى (لئن أدخلت عليه -يعنى الخليفة- لأصدقته ولا موتن فى حديدى هذا حتى يأتى قوم يعلمون أنه قد مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم).

لم يمت فى عداد الرجال أعلام الانسانية، البويطى، ولكن مات المأمون.

وعذب ذون النون فيمن عذب من رجالنا عندما امتحنا (بخلق القرآن) وسيق إلى (المطبق) تحف به القلوب مبللة بدموعها. وفي اصرار لم يتزحزح عن رأيه بل كان يقول في هدوء الواثق من نفسه:

لك من قلبي المكان المصون كل يوم علي فيك يهون
لك عزم بأن أكون قتيلا فيك والصبر عنك مسالا يكون

وإذ أحضره المتوكل لم يكتف باطلاق سراحه بل تأثر به وانتصر من أجله، للصوفيه على الفقهاء.

ومن رجال مصر أصحاب المواقف قاضى القضاة وسلطان العلماء العز بن عبدالسلام الذى واجه السلطان الصالح أيوب والذى أصر على بيع الممالك ومنهم نائب السلطان باعتبارهم أرقاء لا تجوز لهم الولاية حتى يعتقوا.. ويذهب اليه نائب السلطنة على رأس جيشه فلا يرهب ويصر على رأيه فلم يجد النائب بدا من الأذعان وبيع الممالك وقبضت مصر ثمنهم بيده.

ويسأله ابنه: خفت عليك يا أبى فيكون رده:

مما تخاف يا بنى.. لقد استحضرت هيبة الله فبدا نائب السلطان فى عيني كالقط.

وفى قصة الظاهر بيبرس تسخر مصر من عدل الحاكم بصورة عملية فتنشئ ديوانا شعبيا لا يرتشى ولا يتجبر ولا يتكبر.. ديوانا مصريا لا يميل فيه ميزان العدل ويتقدم اليه أبناء البلد والفلاحون فيجدون اذنا صاغية وصدرا رحبا.. وكان مصر الإسلامية بهذا الديوان تتجاوب مع رغبة بعيدة أبادها فى مصر الفرعونية، الفلاح الفصيح.

حتى قصة الهلالية التى لا تعدو عراكا بين قبيلتين أعملت مصر فيها رأبها ووجدانها فجعلت الحسن بن سرحان، عادلا عفواً انعكاسا لرغبة النفس المصرية فى العدل والسماحة.

وغدا الحسن بمجامع الصفات المصرية فيه، رمزا شعبيا حتى لنطلق على وجه السميت والشارة بأذخ العطاء الفنجرى العادى «عامل ابو على» وتسخر مصر من الظلم ويسهم فى هذا

«واعظ» هو يوسف الشربيني واعظ شريين الذي هز القحوف في شرح قصيدة ابي شادوف الذي الف خطبة على نمط خطبة الجمعة، غير أنها تفيض بالسخرية والألم معا.. ومنها:

(الحمد لله مزيل الحزن ومزين الارز باللبن، وأشهد أن اللحم الضانى سيد الاطعمة ومصالح للبدن.. واعلموا أن القشدة لا تترك وان المهلبية احسن وابرک فتهيأوا لأكلكم وشريككم وأعلموا أنكم، غدا بين يدي الله موفون، وبأعمالكم محاسبون.. وعلى رب العزة تُعرضون وسيعلم الذين جاعوا أى منقلب ينقلبون.. اللهم وارض عن الأربعة الأعيان التين والزيتون والخوخ والرمان وأرض اللهم عن الستة الباقية من العشرة الاطعمة المقتخرة:

الماوردية، والمهلبية، والشعرية بالزغاليل المرية والارز المفضل باللحم الضانى المحشى المحمر، والكنافة المتبلّة بالسمن والعسل النحل والقرع المحشى باللحم والبصل والبقلادة الموصوفه والخرفان الملعوفه واليخنى السمين والقرمزيه متعنا الله واياكم بهم اجمعين.. اللهم وادم النصر والتأييد والثبات واجمع الشمل بعد الشتات ببقاء السكر النبات ابن القناني من اصله من القصب الملوانى.. اللهم ايده بأرماع القصب وبسبايط الرطب وبعناقيد العنب واجمعنا عليه من اول النهار وفى وسطه وآخره.. اللهم واهلك الثلاثة الفجار: العدس والبسلة والبيصار).

- هؤلاء هم الفجار الذين يواجههم الشعب. أما الفجار والكفار من الامم البائدة فهم لا يعنونه-

عباد الله من أراد حلل القبول أن تسدل عليه فليأكل الموز بالسكر بين والديه، وتفكهوا قبل الطعام واقتدوا بسنة خير الانام ولا تتضاربوا ولا تتخاذلوا، وكونوا عباد الله اخوانا).

فى هذه الخطبة مرام بعيدة للسخرية أقربها أن الجائع المحروم لابل له ولا فراغ فى صبره أو صدره، للخطبة الموضوعه والألفاظ المصنوعة والدعاء المتكلف الذى لا روح فيه ولا مسوخ له وإلا فكيف بعد الحرمان يطلب من الشعب المصرى الدعاء بالنصر والتأييد.

إن خطبة الجمعة يجب أن تعيش فى مشاكل الناس.. تعلمهم أن الايمان معناه (العزة والكرامة) لا النفاق استنادا إلى الآية:

«ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين»

أما أن تدعو للظالم وتخدر المظلومين بالجنة أو ترعبهم بالنار وتحذر الضحايا من عاقبة الظلم وهم عاجزون عنه وراسفون فيه، فلا.

انتقل، وفي التاريخ صفات، وفي النفس حاجات، إلى مصر الحديثة ورحلتها مع العدل. أبدأ من الحملة الفرنسية.

لقد عبث نابليون بمقدسات كبيرة في مصر ولكنه امام القضاء، وقف.. لم يمسه في جوهره بل اجتهد في البداية أو تجاهد في تأييده اذا صح هذا التعبير.

افتعل نابليون تأييد القضاء المصرى.. توددا إلى قضائه، ومرضاة لهم، أو تحسبا لغضبهم.. ثم أصابته غدة قانونية بعد هذا شأن الطغاة كلهم(١).

وأنشأ محمد على، «ديوان الوالى» و «مجلس شورى الجهادية» ثم ألغيت المجالس التى أنشأها وأحل محلها سبعة دواوين:

الديوان العالى - ديوان الإيرادات - ديوان الجهادية - ديوان البحر - ديوان المدارس - ديوان الامور (الافرنجية والتجارة المصرية - ديوان الفاوريات.

ثم أنشأ مجلس المشورة وجمعية الحقانية والمجلس الخصوصى والمجلس العمومى ومجلس جمعية الاسكندرية.

ولم يفت «العدل» قيمة كبرى تحيا عليها، وتحيا بها الامم والدول.. العدل بهذا الشقل الحضارى لم يفت رفاة الطهطاوى فقال:

(وما يسمونه الحرية «فى فرنسا» ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا، العدل والانصاف وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوى فى الأحكام والقوانين بحيث لا يجور الحاكم على إنسان بل القوانين هى المحكمة والمعتبرة)(٢).

(١) اقرأ كتاب النظام القضائى المصرى الحديث للدكتورة لطيفة محمد سالم.

(٢) «تخليص الابريز فى تخليص داريز لرفاعة رافع الطهطاوى ص ٨٠.

(٣) اقرأ كتاب: (العدالة والحرية فى فجر النهضة العربية الحديثة).

حتى العدالة الاجتماعية والاقتصادية تكلم عنها رفاة الطهطاوى من نحو الزرع، وأولوية العمل على رأس المال^(٣).

والمجلس العمومى ومجلس جمعية الاسكندرية.

كما أنشأ عباس الأول مجلس الأحكام.

أما سعيد فقد أنسجت تقلباته على القضاء.

وفى سنة ١٨٧١ أنشأ اسماعيل بكل قرية من القرى مجلسا لنظر القضايا الصغرى سمي «مجلس دعاوى البلد» تستأنف أحكامه أمام مجلس دعاوى المركز، تستأنف أحكامه أمام «مجلس الاقليم».

وكان هناك:

المجالس الابتدائية- المجالس الاستئنافية- مجلس الأحكام. هذا غير:

المجالس الحسبية • المجالس المالية.

كما أنشأ ديوان الحقانية ومجلس شورى النواب فى ١٩ / ١١ / ١٨٦٦ الذى ألغاه ثم أعاده سنة ١٨٧٩ وجعل الوزارة مسئولة أمامه لا أمام الخديوى.

وشكل «توفيق» لجنة قانونية يرأسها ناظر الحقانية.

وأهم عندى من توفيق الخديوى، الفلاح المصرى، عرابى.

عندما قاد ثورته ضد الاستبداد، كان أول طلبات عرابى:

١- اسقاط الوزارة المستبدة

٢- تشكيل مجلس نواب على النسق الاوروبى

٣- كان المطلب الثالث خاصا بالجيش، وهو الرجل العسكرى: إبلاغ الجيش العدد المعين فى الفرمانات السلطانية.

واقترن عهد توفيق بالاحتلال، ولكن القضاء المصرى فى عهد الاحتلال، ارتفعت أحكامه على التحيز فعلى سبيل المثال حكم على أحد ذوى اليسار يملك خمسة آلاف فدان بالحبس سنة لتزوير ارتكبه.. وعلى آخر من اكبر العائلات المصرية شهرة وأعظمها تأثيرا بعقوبة مؤبدة لجنائية سطو ارتكبتها.

وفى عهد الاحتلال، رفض الشيخ محمد الامبابى مقابلة- كرومر واعتكف فى قريته فسمى اليه كرومر فأبى ان يستقبله او يقف لتحيته فقال له كرومر:

- لقد سميت اليك فى قريتك.. أتيت إلى دارك ومع هذا تأبى السلام على فرد عليه الشيخ محمد الامبابى فى عزة رجل الدين الذى يمثل السلطة الروحية لهذه الأمة:

- أنت مستعمر بلادى ودينى ينهانى عن تعظيمك.. وخرج من عنده كرومر بعد أن قر فى نفسه احترامه، ليكتب تقريراً للندن.

لقد تحيف اتباع محمد بك الالفى، أهل بلبيس فى عهد الشيخ عبدالله ابن حجازى الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر، فثار الامام الأكبر (وحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ وقللوا أبواب الجامع وذلك بعد أن خاطب مراد بك و ابراهيم بك فلم يبديا شيئاً. وأمر المشايخ الناس بغلق الاسواق والخوانيت ثم ركبوا.. وتبعهم كثير من العامة وازدحموا امام الباب والبركة- حيث يسكن إبراهيم بك- فأرسل اليهم أيوب بك الدفتردار فوقف بين أيديهم وسألهم عن مرادهم فقالوا.

- نريد العدل وابطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها.

فقال لا تمكن الاجابة إلى هذا كله فانا ان فعلنا ذلك ضاقت علينا المعاش فقالوا له:

- ليس هذا بعذر عند الله وما الباعث على الإكثار من النفقات والماليك؟ والامير يكون أميراً بالإعطاء لا بالأخذ.

واستجاب مراد بك وأرسل إلى العلماء وشيخهم الشرقاوى (والتمس منهم السعى فى الصلح) فأنعقد الصلح على رفع المظالم. وانتصر العدل.

فى رحلة العدل اتعمد الوقوف امام مواقف العلماء من العدل والحق بما يمثلون من سلطة الأمة.. السلطة الروحية. وقد كانت هذه الأمة تسمى رجل الدين حين ينتصر للحق «سلطان العارفين» فى عملية رد على سلطان الحكم وأقرب هؤلاء إلى حياتنا الحاضرة «سلطان العارفين» الشيخ «ابو العلا» حين طوى النسيان اسم الحاكم فى عصره.

إن العدل فى مصر يتمثل فى مظاهر شتى.

عندما وضع الشيخ المراغى قانونا لإصلاح الأزهر سنة ١٩٢٨ وقف ينافح عنه وتصدى لمجلس الوزراء يناقشه فيه، حتى اقتنع المجلس وأقر القانون.. ولم يبق إلا صدور المرسوم به.

فلما لم يصدر القانون قدم الشيخ المراغى، استقالته.. لأنه كما يقول أحمد لطفى السيد (كان من الذين يرون المناصب ضريبة يدفعها الكفاء لامزيه يختص بها المقربون).

كان الشيخ المراغى يعمل فى السودان قاضى القضاة وثورة سنة ١٩١٩ قائمة فى مصر فأحل دماء الانجليز ودعا إلى الثأر منهم، وهنا قال عنه سير لى ستاك حاكم السودان حيثشد (ان الشيخ المراغى لا يمكن التغلب عليه. انه أحد الدهاة)^(١).

روح العدل فى مصر تتمثل فى وقفة العقاد فى البرلمان مهديدا بسحق أكبر رأس تهدد الدستور مرآة العدل.

وحين وقف بروح العدل مدافعا عن خصمه السياسى فى ذلك الوقت الدكتور طه حسين فى قضية كتاب (فى الشعر الجاهلى).

ولما كان القضاء حصن هذه الأمة، فقد نادى المفكرون باستقلال القضاء فنادى لطفى السيد بحرية القضاء قائلا:

(حقوقنا رهن باستقلال القضاء فإن لم يكن القضاء حرا مستقلا فمصالحنا همل، وحريرنا هراء)^(٢).

وقد شهد عام ١٩٤٦ مولد مجلس الدولة يحمى المواطنين من عسف القرارات الإدارية اذا وقع فكان أعظم اصلاح دستورى بعد دستور ١٩٢٣^(٣).

كم عانى قضاة مصر كشعبها من اقتتات واعتداءات على مسيرة ثلاثين سنة طويلة مريرة ولكن دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة.

(١) كتاب (الشيخ المراغى بأقلام الكتاب) ص ١٨٦.

(٢) اقرأ (المنتخبات) ج ٢ ص ٨.

(٣) (المحامون وسيادة القانون) للاستاذ عبدالحليم الجندى

لا أتكلم عن شموخ القضاء المصرى فى الحكم بالعدل فى قضايانا المعاصرة فالقضاة بها أدق علما.

ولكن من حقى أن أتكلم عن موقفين كان رجال العدل المصريين: قضاة ومحامين، حصنا..
أول الموقفين، هضبة الاهرام التى أنصفتى فيها القضاء الابتدائى والاستئنافى ثم مجلس الدولة.

والموقف الثانى يوم عرض الحاكم مالا يملك: ماء النيل على اسرائيل.
وفتحت لى نقابة المحامين بابها وللأحرار الذين جبهوا العرض وجابهوا المشروع المعروف بالرفض والإدانة.

وبدأت الندوة فى الثامنة مساء وامتدت إلى ما بعد منتصف الليل. فلم يلبث الحاكم، ولما يمض على الندوة، ثلاثة أيام، حتى أعلن تراجعه وانتصرت مصر.

وابتليت مصر فى السبعينيات بقوانين تنشئ محاكم استثنائية، ومنيت بأقحام من ليسوا قضاة أنفسهم عليها. وهى محاكم (حظرت انشاءها فى غير زمن الحرب، أغلب دساتير العالم ومنها الدستور الافغانى. وفى مقدمة تلك القوانين: قانون حماية القيم من العيب الصادر بالقانون رقم ٩٥ لسنة ١٩٨٠ اذ فضلا عما خلفه هذا القانون من ازدواجية مقبته تتنافر مع الاحترام الواجب لحجية الأحكام، فقد ابتدع مسئولية سياسية لأشخاص لا يتمتعون بأية سلطة سياسية.

ثم أليست فلسفة قانون العيب، اهدارا لكافة مواد الدستور التى نصت على حرية الرأى وحرية التعبير وحرية الفكر وحرية البحث العلمى. أليس القضاة باستقلالهم وحصانتهم هم حماة الحقوق والحريات بنص المادة (٦٥) من الدستور؟ (١)

(١) المستشار محمد وجدى عبدالصمد- مجلة القضاة يناير- يونيه ١٩٨٤.

المراجع والمصادر

- (١) فجر الضمير.. جيمس هنرى برستد
- (٢) شخصية مصر.. دكتورة نعمات أحمد فؤاد
- (٣) الحياة الاجتماعية في مصر القديمة سير و. م. فلندوز بتري ترجمة محسن محمد جوهر- عبدالمنعم عبدالحليم
- (٤) الحياة اليومية في عهد الرعامسة بيبير مونتيه ترجمة عزيز مرقس منصور.
- (٥) النيل في الادب المصرى- دكتورة نعمات أحمد فؤاد.
- (٦) الليث بن سعد- دكتور عبدالحليم محمود- الامام الاكبر شيخ الجامع الأزهر.
- (٧) التاريخ العام للقانون في مصر القديمة والحديثة- دكتور شفيق شحاتة.
- (٨) لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربى استاذ عبدالمجيد عابدين.
- (٩) المجددون في الإسلام الاستاذ أمين الخولى.
- (١٠) صبح الاعشى.
- (١١) فى تاريخ المذاهب الفقهية لشيخ أبو زهرة.
- (١٢) النظام القضائى المصرى الحديث كتورة لطيفة محمد سالم.
- (١٣) الشيخ المراغى بأقلام الكتاب.
- (١٤) المنتخبات استاذ احمد لطفى السيد.
- (١٥) المحامون وسيادة القانون استاذ عبدالحليم الجندى.
- (١٦) مبدأ المشروعية فى النظام الاسلامى والانظمة القانونية المعاصرة عبدالجليل محمد على .
- (١٧) الولاية وكتاب القضاة لابي عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى
- (١٨) أسبوع الفقه الاسلامى الثالث المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب.
- (١٩) نظام القضاء فى مصر من الفتح الاسلامى إلى الفتح العثمانى.
- (٢٠) العدالة والحرية فى فجر النهضة العربية ابراهيم جلال بك.
- (٢١) كتاب ادب القاضى لابي بكر احمد الشيبانى.
- (٢٢) حسن المحاضرة السيوطى.
- (٢٣) من أخلاق العلماء للشيخ محمد سليمان.
- (٢٤) نظم الفاظيين ورسومهم فى مصر دكتور عبدالمنعم ماجد.
- (٢٥) المعز لدين الله د. حسن ابراهيم- طه أحمد شرف.
- (٢٦) المرافعات فى أشهر القضايا استاذ محمود عاصم.
- (٢٧) العيد الخمسينى للمحاكم الاهلية- المطبعة الاميرية ١٩٣٣.
- (٢٨) مجلة القضاة (يناير- يونيه ١٩٨٤).